مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات
العدد الرابع عشر– آب 2022 – صفر 1444 ISSN-2536-0027

المرجعية الدينية في كتاب الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق الأحاديث النبوية الشريفة وأحاديث الخلفاء الراشدين أنموذجاً

أ.د.صادق جعفر عبد الحسين
رؤى علي عباس الكرعاوي
جامعة ذي قار / كليّة الآداب /قسم اللغة العربيَّة

الملخص
تعد أحاديث النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) وخلفائه الراشدين مرجعية ثقافية مهمة في الساحة الأدبية العربية، إذْ شكلتْ مصدر إلهام للأدباء العرب الذين اطلعوا على تلك الأحاديث، فصاغوا منها مادتهم الأدبية بشقيها (الشعرية والنثرية)؛ لأنَّ هذا الألفاظ والكلمات لها وقعها في المتلقي، وهي حجة في أثبات الرأي أو بطلانه، إذْ عن طريقها يمكن للمحتج أنْ يميل كفة الميزان لصالحة، لما تتمتع به من قدسية كبيرة .

The hadiths of the Prophet (may God's prayers and peace be upon him and his family) and his Rightly-Guided Caliphs are an important cultural reference in the Arab literary arena. Because these words and words have their impact on the recipient, and they are an argument in proving the opinion or its invalidity, as through it the protester can tip the scales in his favor, because of its great sanctity.

أوَّلاً: الحديث النبوي الشريف

من المصادر المهمة التي استند عليها الاشبيلي هو الحديث النبوي الشريف، إذْ يُمثل الدعامة الثانية في تكوين نصوص الكتاب، فمن يراقب معطيات ما استبطنه الكتاب يجده يفيض في مواطن كثيرة بمضامين استلها الإشبيلي من الأحاديث النبوية الشريفة، إذْ كان ذلك جزءاً من بنائه التعبيري ودلالاته القصدية وهو أمر يشي وينبئ عن ملكة المؤلف في الغوص في أعماق الموروث من الأحاديث الشريفة.
مثلما كان للنص القرآني حضور في أدب الاشبيلي وذلك بمفرداته المختلفة ومعانيه وآياته، كذلك نجد أن استحضاره للحديث النبوي في شعره كان قويا جدا، فتارة نجده يأخذ مفردات وتراكيب من الحديث الشريف ويقحمها في قصائده، وتارة يأخذ معاني الحديث ويمزجها بمعاني كتاباته، ليضفي عليها ذلك البعد الديني والروحاني، وذلك إيمانا منه أن للحديث النبوي تأثير كبير في نفس المتلقي، وكيف لا وهو كلام الحبيب المصطفى (ﷺ).

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات
العدد الرابع عشر– آب 2022 – صفر 1444 ISSN-2536-0027

فالاشبيلي كان يدرك أشد الادراك بمعرفة ما يحتويه الحديث النبوي من أوامر ونواهي ومبادئ جليلة قيمة، لذلك تراه يأخذ من مرجعيته الدينية العديد من الأحاديث النبوية الشريفة، فجعلها منبعاً رقراقاً يروي به أحاسيس المتلقين لأدبه سواء على الصعيد الشعري أو النثري، ومن بين النصوص التي وردت فيها بعض مفردات وتراكيب الأحاديث النبوية ومعانيها.

ومن شواهد الحديث النبوي الشريف التي ذكرها الاشبيلي في كتابه في فصل (إرادة النفس) قوله النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلم) للإمام علي (عليه السلام): ((إذا اقترب الناس إلى خالقهم بأبواب البر، فتقرَّب إليه بعقلك يا علي فتسبقهم بالدرجات))[1] .

إذْ عمد الكاتب في تبيان الصورة الحقيقية التي خصَّ بها الله (عز وجل) العقل، فالعقل هو الغاية السامية التي أعطاها لبني آدم وكرمهم بها، ليكونوا خلفاءه على هذه الأرض، فبالعقل يحيوا، وبه يثابوا، وعليه يحاسبوا، لذلك أراد النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلم) من أمير المؤمنين أنْ يدرك ويعرف الله بعقله قبل كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ الإدراك العقلي، يوازي المعرفة الحقة لله (عز وجل) وكذلك الجوهري العقلي يُناظر القدسية الإلهية.

ومن الشواهد التي تمثَّل بها في العقل، وذكر فضل الشبان ووجوب الاهتمام بهم، قول رسول الله (أوصيكم بالشبان خيراً، فإنهم أرق أفئدة، ألا وإنَّ الله ارسلني شاهداً ومبشراً ونذيراً، فخاطبني الشبان وفارقني الشيوخ))[2] .

وفي باب اكتساب العلم وفضائله، واجتناب الجهل وحوامله يرى أنَّ ((العلم ... أفضل مكسب، وأشرف منتسب، وأنفس ذخيرة تقتنا، وأطيب ثمرة تُجتنى، له يتوصل إلى معرفة الحقائق، ويتوسل إلى نيل رضا الخالق، وهو أفضل نتائج العقل وأعلاها، وأكرم فروعه وأزكاها، لا يضيع أبداً صاحبه، ولا يفتقر كاسبه، ولا يخيب مطالبه، ولا تنحط مراكبه))[3] .

جاء الاشبيلي بمجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة؛ لأنَّه يُدرك المكانة السامية لهذه الأحاديث ووقعها في قلوب المتلقين؛ لِما تحمله من قدسية، وكذلك تمثل أرقى مراتب البلاغة العربية بعد القرآن الكريم ((لمداد جرتْ به أقلام العلماء أحبُّ إلى الله من دماء الشهداء))[4] .

وما جاء به من الشواهد التي تندرج تحت هذا السياق قول الإشبيليّ في انخداع ابن آدم بالدنيا: ((فأدب الشريعة يحمل على أداء الفرض، وأدب الطبيعة يحمل على عمارة الأرض، وكلاهما داع إلى ما فيه من اجتماع شمل الخير إن شاء الله ... وقال (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وإلى أجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميت قلوبهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم))[5] .

وقال عليه السلام: ((تعملون للدنيا و أنتم تُرزقون فيها بغير العمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل))[6].

إنَّ الكاتب هنا جعل من سياقه النصي يقوم على دليل نبوي واضح الحجة والبيان وهو حديث رسولنا الكريم(ﷺ) لأمير المؤمنين(عليه السلام) يخبره فيه عن ماهية العقل التي ميز الله به الإنسان عن سائر المخلوقات والعقل هو الوسيلة التي يميز بها المرء متناقضات الحياة في الخير والشر وبه يستدل على كل حجة ودليل ويعرف به الله حق معرفته فجاء التوظيف هنا متوائماً مع مقاصد النص.

وفي الحسد الذي عرَّفه بقوله : ((والحسد أصل كل عداوة، ورأس كل بلية، وأس كل خطيئة، وسبب كل ملامة، وجالب كل ندامة . وأعظم نتائجه البغي، وهو أكبر دواعيه، وأشد عواديه، وأخبث ثمراته، وأسرع صرعاته، وكل من كان معه هلك وأهلك، واستوجب الخزي أية سلك، لما في البغي

من انتهاك المحارم، واستباحة الأموال، والتغرير بالمهج، والوصول إلى البشرات، والجمع المضرات؛ لأن الحسد إذا لم يكن معه بغي فإنا هو عذاب ينزل بصاحبه، وذكر يختص بجانبه))[7].

فقد استحضر قوله النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلم) ((ثلاثة لا يسلم منها أحد: الحسد والطيرة والظن فإذا حسد أحدكم فلا يبغ، وإذا تطير فلا يرجع، وإذا ظن فلا يحقق[8]))

وقال عليه سلام: ((لو بغى جبل على جبل لجعل الباغي منها دكا))[9]

في بناء النص المنتج ، وايضاح التجربة الشعورية، التي هي محل علم الله واطلاعه يعلم ما تضمرهه الصدور، وتخفيه القلوب ، فالحسد وما تنطوي عليه الأحشاء، وما تحدث به النفس وليوم القيامة اثر نفسي كبير وهاجس روحي، يولد في النفس الإنسانية رهبة وخوف عميقين ، خشية من لقاء الله سبحانه وتعالى، وخوفا من عقابه ، ترى فيه الناس يتهافتون تهافت الفراش على النار، فزعين لايهتدون إلى اين سيتجهون[10].

ومن الشواهد الأخرى قوله أيضاً في حكم الحكماء وجميل الكلم : ((للمؤمن على المؤمن ستُ خصال: يعوده إذا مرض، ويشهده إذا مات، ويجيبه إذا دعاه، ويسلم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، وينصح له إذا غاب أو شهد))[11].

فالكاتب في تركيزه على الحديث النبوي الشريف لما له من خصال متعددة منها تعليمية وتهذيبية، لأنَّها تصدر من سلطة أقوى تكون أقوالها واجبة التنفيذ، فالكاتب ركز على أنَّ ((التداخل النصي هو تعالق الدخول في علاقة نصوص مع نص حدث بكيفيات وتقنيات لغوية متعددة أي ادمجت فيه بتحويرها وتصييرها؛ لتنسجم مع تركيبه ومع مقاصده وغاياته، بقصد مناقضة دلالة معانيها أو بهدف توثيقها وتعضيدها، إذ يعد ظاهرة لغوية لا مناص منها ولا يتحرر الانسان من قوانينها وانظمتها المكانية والزمانية، ومن ذاكرته أي من تاريخه الخاص، وذلك؛ لأن أساس انتاجية أي نص هو معرفة مؤلفه للعالم، وهذه المعرفة هي ركيزة رئيسة في تأويل النص))[12]

ارتكزت وحدات السياق النصي هنا على بؤرة الحديث الشريف، فالكاتب هنا في مقام تحذير ووعظ فهو في سياق الحديث عن التزهيد بالدنيا وملذاتها والتنفير عن نضرتها وبهجتها فهو يخبر عن ذروة الإيمان والاصطلاح مع النفس التي تتجاذبها الأهواء والغواية من جهة والتخلي عن ملذات الدنيا وزخرفها من جهة أخرى وهو يشدد على أن كبح جماح النفس وتكبيلها من الانقياد إلى مهاوي الخسران والحرمان لا يقوى عليه إلا من حباه الله بعقيدة قوية وإيمان راسخ، ومن ثم كان التماس مشرب الأخذ من الحديث الشريف أدعى إلى تجدد الإصغاء وتنشيط لذة الاستماع ومن ثم الانجذاب.

وكذلك قوله (ﷺ) في الزهد : ((ازهد في الدنيا يُحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يُحبك الناس))[13]

.

فالكاتب أراد من خلال هذا الحديث أنْ يُشكِّل تعبيراً أحادي الدلالة، صاباً اهتمامه على لفظة الزهد، في اظهار المعنى الحقيقة لمدلولات هذه اللفظة، ومحاولة ايجاد الطرائق للوصول لغايتها السامية في تنشئة جيل يبحث عن محبة الله له، ومحبة الناس في المقام الثاني، متكئين على الأعمال الزهدية التي تبعد الانسان عن التقرب لما حرم الله، فيكون المسعى الذي أراده المؤلف يصل إليه مستعيناً بإمكانياته التناصية وطاقاته اللغوية التعبيرية.

ثانياً : توظيف أقوال الخلفاء الراشدين وأحاديثهم

لم تكن أقوال الخلفاء الراشدين وأحاديثهم وما وصل من تراثهم المأثور وما ينطوي عليه من كلمات وعبارات أخذتْ صداها في المجتمع الاسلامي، حكمة، بليغة موجزة ذات قدرة تعبيرية وبلاغية عالية،

تندرج في إطار الحكمة والموعظة بعيدة من ثقافة الأديب الاندلسي، وفي مخيلته المعرفية ومن انشطة الفكرية، إذْ سعى الأدباء الاندلسيون الى استحضار بعض أقوال الخلفاء الراشدين وأحاديثهم وإعادة تنظيمها في إنتاجية شعرية جديدة، تعبر عن مقاصدهم وغاياتهم بما ينسجم وتجاربهم الشعورية والنفسية التي يسعون في التعبير عنها[14].

وظف الاشبيلي أقوال الخلفاء وأحاديثهم في كتابه بشكلٍ موسع؛ كي يزيد من المساحة الاقناعية لدى متلقي نصه، وضعه في شباكه التي لا يستطع الخروج منها، لأنَّه احكم عليها بمجموعة من الحجج التي لا يمكن ردها ومن ذلك قول الخليفة أبي بكر إذا مُدِحَ : ((اللهم إنَّك أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم أجعلني خيراً مما يحسبون، وأغفر لي مالا يعلمون، ولا تؤخذني بما يقولون))[15].

ومن الأحاديث التي ذكرها الكاتب لأبي بكر أنه حين دخل على النبي (ﷺ) ومعه عمر قالا : ((السلام عليك يا أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فقال الحاضرون مثل ما قالا، ثم قالا : نشهد أن قد بلَّغ ما أنزل الله، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى أعزَّ الله دينه، وتمت كلمته، وآمن به وحده لا شريك له، اللهم أجعلنا من الذين يتبعون النور الذي أنزل معه، واجمع بيننا وبينه حتى تعرفنا به وتعرفه بنا، فإنَّه كان بالمؤمنين رحيماً، لا يبغي بالإيمان بديلاً ولا يشتري به ثمناً قليلاً . فيقول الناس مثل ما قالوا، ثم تدخل طائفة أخرى فيقولون مثل ما قالوا، حتى صلى الرجال والنساء والصبيان))[16]

فهذه المعرفة المطلقة والسجية الواضح التي تفتحتْ أمام الخلفاء ومن كان حاضراً معهم، في كون النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) هو السبيل للوصول لله (عز وجل) وهو الهادي لهذ الأمة، وطريقها الذي به تنجو، فهو أنيس النفوس، وملجأ كل خائف، لذا وعى المسلمون أمره، فكانوا شديدي التعلق به .

ومما تناوله الاشبيلي في كتابه من أحاديث الخلفاء الراشدين قول الخليفة عمر بن الخطاب : ((لا يمنع أحدكم حداثة سنه أن يُشير برأيه، فإنَّ الرأي ليس بحداثة السن ولا على قدمه، ولكنه أمر يضعه الله حيث يشاء))[17] .

فالمرجعية الثقافية التي تمتع بها الاشبيلي سلطتْ الأضواء على التراث الدين لتأكيد على أمر سبق وأنَّ الرسول الكريم (صلَّى الله عليه وآله وسلم) قد عمله وهو تكليف الحدث من الشباب أنْ كان تنماز بصفات تفوق أقرانه ومن هم أكبر منه، وهذا الحديث يتناص مع قصة تكليف أسامة بن زيد (رضي الله عنه) قيادة جيش المسلمين وهو مازال في مقتبل العمر، في حين كان هناك من الشيوخ الكثير، ولم يكن هذا فحسب، بل أنَّ النبي لعن المتخلِّف عن هذا الجيش بقوله (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) : ((لعن الله من تخلَّف عن جيش أسامة))[18] فالكاتب أراد الايعاز على أذهان المتلقين أنَّ ما جاءتْ به أحاديث الخلفاء وأقوالهم ما هو إلَّا صدًى لما ذكره النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) والأحداث تتداول بين الناس، لذا فهي متشابهة في كثير من الأحيان وتحتاج للموقف عينه الذي وقفه النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم)، فمن يجد في نفسه القدرة والقيادة فليتقدم لها، من دون النظر إلى سنه، وهو المبدأ الذي تسير به دول العالم المتقدمة، الرجل المناسب في المكان المناسب .

وقد استشهد بقول الخليفة عمر في من يتولى الخلافة بعده ((فذكر له ابن عباس عثمان وعلياً وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف واحداً واحداً، فما سمى رجلاً إلَّا وذكر عمر رضي الله عنه فضائله، وأبان خصاله ودلائله، ولم تتم به خلال الخلافة، ثم قال : يا ابن عباس، والله لا يصلح لهذا الأمر إلَّا القوي غير عنف، واللين غير ضعف، الممسك في غير بخل، الجواد في غير إسراف))[19]

.

فالكاتب حرص على أنْ يأتي بما اسقر في اذهان الناس حتَّى لا يدع شكاً يخالجهم في الكلام الذي جاء به ، لذا يعمد إلى أقوال الخلفاء وأحاديثهم؛ لأنَّ نسبة الشك في تلك القول تكاد تنعدم، فالأحاديث التي يذكرونها هي صلب ما أمرهم به النبي (ﷺ) ومن قبله الله (عز وجل)، لذا على من يتولى أمر المسلمين لابد له من أنْ يتحلى بصفات تكاد تكون وسطاً بين الشدة واللين، وبين القوة والضعف حتى يستطيع أن يفهم من هم في رعيته، ومتى يكون الاسراف وأين يكمن البخل .

وفي الباب السادس (حب العدل وأهله وبغض الجور وأهله) ذكر موقف عمر بن الخطاب من قاتل أخيه زيد ((روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنَّه دخل عليه لبيد العجلي، فقال له عمر: أقتلتَ زيداً؟ فقال : يا أمير المؤمنين قتلتُ رجلاً يُدعى بزيد، فأن كان فهو هو، أكرمه الله بيدي ولم يهني بيده، فلم يرَ بعد ذلك مكروهاً من عمر رضي الله عنه، وكان رضي الله عنه قد وجد لفقد أخيه زيد وجداً عظيماً، وكان يقول لفرط حزنه عليه، إنَّ الصبا لتهب فتأتيني بريح زيد بن الخطاب))[20] .

فالكاتب جاء بهذا الحديث للخليفة عمر، لتبيان الدور القيادي المهم، في كون القائد يُمثل الراعي لاتباعه، لا أن يكون عليهم سُبعاً ضارياً، فما أجمل أنْ تكون قادراً فتعفو، فهذه الدروس الأخلاقية التي يُقدمها الاشبيلي حتَّى يجبل المتلقي لنصوصه على ما كان عليه السلف من أنهم يتحلون بالصبر، وكاظمين لغيضهم، واربط جأشاً عند الملمات، فالقيادة لا أنْ تكون متسلطاً، بل العكس متى ما كنت قادراً فتعفو هنا يكمن دور القائد، فسعة الصدر هي آلة الرئاسة، فالاشبيلي حاول الربط بين ما بين قول الخليفة والقرآن الكريم، إذْ جاء منسجماً مع قول الله تعالى ((وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ))[21] وهذا ما يدل على التوافق بين ما جاء في القرآن وما تماشى مع عمل هؤلاء الخلفاء، فهذا التوافق يكون قوة حجاجية كبيرة استند عليها قائلها، لتصب في القول المراد ايصاله لدى المتلقي سواء كان ملتقي ما كتبه الخليفة أو ما كتبه الكاتب .

ومن الشواهد الأخرى فيما قاله الخليفة عمر بن الخطاب : ((وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: إذا فسد الزمان فتحفظوا من الناس بسوء الظن. فمن الحق على كل مسلم أن لا يقيم عذر مغتاب وإن قال حقا، ولا يساعده وإن قصد بغيبته صدقا، فإن ذلك من سوء الأدب، وقلة الحفيظة واجتناب المروءة؛ لأن المغتاب الصادق قد أظهر قبيحا كان مستورا، وهتك سترا كان مسدولاً، وفضح سرا مكتها، وأحل أمرا محرما، فما رعى ذمة، ولا حفظ حرمة . وقد قيل في مرفوع الحكم: لا تبد من العيوب، ما ستره علام الغيوب. وهذا ينظر إلى قوله تعالى: (ولا تجسسوا) [سورة الحجرات، من الآية ١٢]))[22]

نلحظ في هذا النص أن الكاتب أراد أنْ يبين من كلام الخليفة أنَّ الحياة في خطٍ متعرج غير مستقرة على مستوى ثابت، لذا في متقلبة تعصف بصاحبها فلا أمان لها، لذلك يخبر الخليفة من خلال نصه اعلاه، أنَّ معادن البشر تظهر في أوقات الشدة، فعلى المرء أنْ يحفظ ما علمه من سوء من اخيه، فلا يغتابه في غيبته، ولا يفض سره وأن يرعى ذمته، ويحفظ سره، فهذه المرجعية الدينية الثقافية السلطوية المتمثلة بالخليفة عمر بن الخطاب، قدْ راعتْ الطمأنينة والسكينة التي ينشدها في كلامه من دون القول هذا مباشرة، إذْ لو سادتْ الفواحش والنميمة وغيرها من الصفات التي نهى عنها، فلا يمكن أنْ يكون هناك مجتمع أمن يجد الفرد فيه راحته، فنظرة الخليفة كانتْ إلى أبعد ما يمكن من لتكوين مجتمع ينعم أهله بالأمان .

ومن الأحاديث التي ذكرها الاشبيلي للخليفة عثمان بن عفان قوله حين سُئل عن أبي بكر : ((كان والله مملوءاً علماً وحلماً، غرته سابقة قربته فكان لا يرى شيئاً يطلبه إلَّا قدر عليه))[23].

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات
العدد الرابع عشر– آب 2022 – صفر 1444 ISSN-2536-0027

وظَّف الاشبيلي هذا الحديث بشخصياته التي لها ثقلها في صحابة النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) يسحب البساط من تحت أقدام كل متكبر، فحين يُسأل مثل الخليفة عثمان ويجيب بهذا التواضع، ونكران للذات، فالنص يشيء بروح الألفة والمحبة التي زرعها الله (عز وجل) في عباده المؤمنين، وبتوجيه القيادة الرشيدة للنبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) فكان بديهياً أن نسمع مثل هذا القول .

وانتفع الاشبيلي من قول الإمام علي (عليه السلام) : ((أوَّل ما يرى الحليم بركة حلمه أنَّ الناس كلهم أعوانه على الجاهل))[24] ، للتعبير عن موقفه تجاه الحلم وتصوير أواصر العلاقة بين الحليم والمجتمع الذي ينتفع بحلمه، فالحلم كما ذكره هو ((إمساك النفس عند الاستشاطة في الغضب، وربط الجأش عند هيجان الحرج، وملك الجوارح عند اتقاد جمرة الشر، والتأيد عند استثارة الأسباب الباعثة على الانتصار، والسكون عند الأحوال المحركة للانتقام، والتثبت في ترك تعجيل إنفاذ الحكم لما في عواقب ذلك من وقوع الندم، وإظهار خفة السفاهة عند حلول البرم، لا سيما مع تمكن القدرة وتحكم القوة، فإنَّ في ذلك لمن ملك إربه وأطاع ربَّه من إقناع النفس وإظهارها ما يحملها على احتمالها واغضائها))[25] .

فالثقافة الحديثية التي امتلكها الكاتب قدْ اسعفته وهو في صدد الرجوع إلى الماضي الذي بمثابة الكنز الذي لا ينضب، كلما أخذ منه شيئاً تفتحتْ له أفق أخرى، وفي الوقت عينه أراد الاشبيلي أن يكون مؤلَفه هذا وثيقة مهمة ومصدر يلتجأ إليه كل من أراد البحث في الأخلاق، لذا حشَّد أحاديث وأقواله من سلَّم المجتمع لهم بالتصديق واستحاله التكذيب، فحديث الإمام (عليه السلام) السابق كان عنصراً فعَّالاً توجيه المجتمع نحو الحلم والتمتع بالحكمة في إدارة الأمور؛ لأنَّ لحظة الغضب تجعل الإنسان يقوم بعمل قد يندم عليه طوال حياته، ومن أحاديث الإمام في هذا الموضوع قوله: (لا تتحدَّث وأنتَ غاضب، فستقول أعظم حديث تندم عليه طوال حياتك))[26] .

وممَّا أخذه الكاتب من أحاديث الإمام علي (عليه السلام) قوله في كتمان السر : ((سرك أسيرك فإذا فضحتَ به صرتَ أسيره))[27] وتمثَّل بأبيات له :

ولا تفـــــشِ سرك إلَّا إليك فـــــــــإن لكل نصيحٍ نصيحا
وإني رأيتُ غـــــــواة الرجا ل لا يتركون أديما صحيحا[28]

فأمير المؤمنين في هذا المقام التوجيهي الإرشادي، يحث المتلقي على أنْ يبقي ما بخلده في قلبه ولا يبوح به، وأن يستعين على قضاء حوائجه بالكتمان؛ لأنَّ الانسان المقابل تعمل عنده الغيرة والحسد، وتمني زوال تلك النعم عن صاحبها، وأن يكون هو الأفضل على جميع المستويات المعيشية، لذلك فالأمام (عليه السلام) بيَّن حقائق ما تخفيه صدور، ولهذا أراد تجنب الفرد الوقوع في أهوال ما يكمنه له الآخرون .

وفي الاقتصار عن الرغبة والجشع تمثَّل بأبيات الإمام علي (عليه السلام) :

أَفادَتني القَناعَةُ كُلَّ عِزٍّ وَهَل عِزٌّ أَعَزُّ مِنَ القَناعَة
فَصَيِّرها لِنَفسِكَ رَأسُ مالٍ وَصَيِّر بَعدَها التَقوى بِضاعَه
تَحُز رِبحاً وَتُغني عَن بَخيلٍ وَتَنعَمُ في الجِنانِ بِصَبرِ ساعَه[29]

فالإمام (عليه السلام) يرسم تراتبية تكوين النفس البشرية، وحثها على تتبع الخطوات التي وضعها في أبياته اعلاه، فالقناعة هي الأساس الذي تبنى عليه عزة نفس الانسان، لأنها تبعده عن كلِّ جشع وطمع واللثة وراء سراب الدنيا الزائل، وتجعل منه مكتفياً بما يريده، ويسد حاجته وحاجات أهل بيته، ومن ثمَّ يردفها بالتقوى التي تكون مرحلة تاليه بعد القناعة، فالإمام (عليه السلام) حرص في المقام الأول على أنْ يكسب المرء قوت يومه، ومن ثم يتوجه لتأدية ما فرضه الله (عز وجل) عليه، إذ اقتبس هذا المعنى

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات
العدد الرابع عشر– آب 2022 – صفر 1444 ISSN-2536-0027

من قول رسول الله(صلَّى الله عليه وآله وسلم) : ((بارك لنا في الخبز ولا تفرق بيننا وبينه فلولا الخبز ما صلينا ولا صمنا ولا أدينا فرائض ربنا))[30]، ونستفد من القولين إنَّ الانسان ليسعى في طلب قوته، أولى من تأدية فرائضه، وهو متقاعس عن العمل.

واستشهد كذلك ب :

قَنِّعِ النَفسَ بِالكِفافِ وَإِلّا طَلَبَت مِنكَ فَوقَ ما يَكفيها

إِنَّما أَنتَ طولَ عُمرِكَ ما عُمِّرتَ في الساعَةِ الَّتي أَنتَ فيها[31]

وعدَّها للإمام علي (عليه السلام) في حين أنَّ الأبيات لأبي العتاهية من قصيدته التي أوَّلها :

مَن أَحَبَّ الدُنيا تَحَيَّرَ فيها وَاِكتَسى عَقلُهُ اِلتِباساً وَتيها

في الختام فإن المرجعية الثقافية الحديثية كانتْ قدْ فرضتْ نفسها بقوة في كتاب الذخائر، وقد اتت بالمبتغى الذي سعى له الكاتب، ومن اجله كتب كتابه هذا، وهو تبيان حقائق الدنيا للنشأ الذين يرى فيها الاشبيلي مستقبل الأمة ، فحاول من خلال ما ألم به من علوم أحاديث وأقوال النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلم) وخلفائه؛ لأنَّه وجد فيها انعكاس ما أراده الله لخلقه أنْ يسيروا عليه، فحين يعزز قوله بحديث لأحدهم ، لا يمكن للمتلقي نكرانه، أو الشك به حتى، فالحديث مثَّل لدى الاشبيلي الركيزة المهمة التي بواسطتها نشر ما أراد إيصاله .

الهوامش

([1]) الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق: 53

([2]) المصدر نفسه: 39.

([3]) المصدر نفسه : 71.

([4]) الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق: 78.

([5]) المصدر نفسه : 528.

([6]) الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق: 53, وينظر: 71, 100, 129, 138, 290, 329, 349, 388, 478, 514.

([7]) الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق: 307 .

([8]) المعجم الكبير : سلمان بن أحمد الطبراني(360هـ): 3227.

([9]) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير : جلال الدين السيوطي(911هـ) : 7412.

([10]) يُنظر : المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين : 43 .

([11]) صحيح سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي : 2737.

([12]) يُنظر : تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) : محمد مفتاح : 121 ـ 123.

([13])المعجم الكبير: الطبراني 6/ 19.

([14]) يُنظر : المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين : 116 .

([15]) كتاب سليم بن قيس الهلالي : تحقيق : محمد باقر الأنصاري: 373.

([16]) كتاب ألف باء في أنواع الآداب وفنون المحاضرات: أبو الحجاج يوسف البلوي: 580/1.

([17]) كنز العمال في السنن والأقوال والأفعال: المتقي الهندي: 10/ 253.

(18) السقيفة وفدك : أبو بكر الجوهري : 76 .
(19) الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق: 331 .
(20) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي: 26.
(21) التغابن : 14.
(22) الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق : 312 ـ 313 .
(23) البيان والتبيين : الجاحظ: 177/3.
(24) الخُلق الكامل: محمد أحمد جاد المولى: 184/4
(25) الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق : 190 .
(26) تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسميتها من حلها الأماثل، أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها : ابن عساكر : 38/ 271 .
(27) مستدرك نهج البلاغة : هادي كاشف الغطاء: 168.
(28) ديوان الإمام علي بن أبي طالب: تحقيق: عبد العزيز كرم : 33
(29) المصدر نفسه : 51.
(30) الكافي : الشيخ محمد بن يعقوب الكليني : 5/ 73.
(31) ديوان أبي العتاهية : 467 .

المصادر والمراجع

- خصائصُ الأسلوبِ في كتاب الذّخائرِ والأعلاقِ في آدابِ النُّفُوسِ ومكارمِ الأخلاقِ لأبي الحسن سلام بن عبد الله الباهليّ الإشبيليّ (ت544هـ): ضياء ريحان منشود، رسالة ماجستير، جامعة كربلاء، 2019م.
- الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق أبي الحسن سلام بن عبد الله الباهليّ الإشبيليّ (ت544 هـ)، تحقيق : محمّد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ط1، 1431هـ – 2010م.
- المعجم الكبير : سلمان بن أحمد الطبراني، تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، ط1، القاهرة، 1404هـ.
- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير : جلال الدين السيوطي(911هـ)، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2004م.
- المرجعيات الثقافية الموروثة في الشعر الأندلسي عصري الطوائف والمرابطين : حسين مجيد رستم، مؤسسة دار الإسلام ، ط1، 2014م.
- كتاب سليم بن قيس الهلالي : تحقيق : محمد باقر الأنصاري، دار الهادي، ط1، قم المقدسة، 1420هـ.
- كتاب ألف باء في أنواع الآداب وفنون المحاضرات: أبو الحجاج يوسف البلوي، تحقيق : خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2009م.

❖ كنز العمال في السنن والأقوال والأفعال: المتقي الهندي، تحقيق : صفوت السقا، بكري الحياني، مؤسسة الرسالة، ط3، بيروت، 2008م.
❖ السقيفة وفدك : أبو بكر الجوهري، تحقيق : باسم مجيد الساعدي، قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية، ط1، كربلاء المقدسة، 2011م.
❖ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين الذهبي، تحقيق : عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، 1990م.
❖ الخُلق الكامل: محمد أحمد جاد المولى، مطبعة حجازي، ط1، القاهرة، 1936م.
❖ تاريخ مدينة دمشق : ابن عساكر، دار الفكر، ط1، دمشق.
❖ مستدرك نهج البلاغة : هادي كاشف الغطاء، مؤسسة كاشف الغطاء، ط2، 2015م.
❖ ديوان الإمام علي بن أبي طالب : تحقيق عبد العزيز الكرم، ط1، 1988م.
❖ الكافي : الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، مطبعة الخيام، ط1، قم المقدسة، 1403هـ.
❖ ديوان أبي العتاهية : دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1986م.